نبذة عن حياة الإمام (عليه السلام)

وقد حاولنا من أجل إغناء ودراسة شعره وجعلها أكثر دقة وتوثيقا أن نستعين بكتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي، وحققه الشيخ محمد عبده، خاصة أننا لاحظنا تشابها بين الديوان والكتاب.

ولد علي بن أبي طالب (أبو الحسن) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف في الكعبة الشريفة!(❖) يوم الجمعة في الثالث عشر من شهر رجب، بعد مولد الرسول (ص) بثلاثين سنة.

أمه هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، كانت من السابقات إلى الإسلام، ويقول ابن أبي الحديد بأنها أسلمت وهاجرت مع الرسول، وحين توفيت حزن عليها الرسول حزنه على أمه! فقد قال (ص) كانت أمي بعد أمي التي ولدتني

نشأ الإمام علي (عليه السلام) في حضن أبيه (أبي طالب) الذي كان كثير العيال، غير أن الرسول تعهّده بالرعاية ثم كفله، وعندما عانت مكة من الجدب سأل الرسول (ص) عمه العباس أن يخفف عن أبي طالب وطأة العيش بإعالة بعض ولده، وقد قبل أبو طالب هذا العون حين عرض عليه، فاحتضن العباس جعفرا، واحتضن النبي عليا(٢) فنهل من كنوز علوم الرسول (ص) متشرباً أخلاقه العظيمة.

كان الإمام أول من آمن بالرسول (ص) حين جاءت البعثة النبوية الشريفة، وعمره حوالي عشر سنوات، ومن المعروف أنه لم يسجد لصنم قط، لذلك نقول عليه السلام، ولم يكن الإمام أول المسلمين فقط بل كان أقربهم إلى النبي (ص) وأكثرهم جهادا وإخلاصا لإعلاء كلمة الله.

لم يعانِ الرسول (ص) من أذى قريش وحده، فقد امتد أذاها إلى أهله ومن يلوذ به، فقد حاصرته وعشيرته (بني هاشم) في شعب أبي طالب فعانوا الجوع مدة ثلاث سنوات، وقد مات عم النبي وحاميه (أبو طالب والد الإمام) مع زوجة النبي السيدة خديجة إثر هذا الحصار، رغم ذلك تابع الرسول (ص) جهاده في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، إلى أن أتاه

(❖)راجع من أجل ولادته كتاب علي وليد الكعبة للشيخ محمد علي الغروي الأوردبادي، مطبعة النجف، ١٣٨٠هـ، حيث ذكر عددا من المصادر السنية والشيعية التي أكدت ميلاده في الكعبة.

أمر الله بمفارقة مكة والهجرة إلى يثرب، في وقت اجتمعت فيه قريش وقررت قتل الرسول، فأمر عليا أن يبيت في فراشه، وخرج متوجها إلى يثرب، وحين هجم رجال قريش على الفراش فوجئوا بعلي (عليه السلام) فخرجوا يقتفون أثر الرسول (ص) ويطلبونه، ولكنه، كان قد اختبأ في الغار.

وقد هاجر الإمام إلى المدينة بعد الرسول (ص) حيث أسهم في إنشاء دولة الإسلام الفتية، وفي يثرب التي سميت المدينة المنورة آخى الرسول (ص) بين المسلمين مرتين، في المرة الأولى بين المهاجرين وفي المرة الثانية بين المهاجرين والأنصار، فآخى في المرتين بين نفسه الشريفة وبين الإمام علي (عليه السلام)(٣)

وأثناء حروبه (ص) مع المشركين كان الإمام حامل اللواء فيها والمدافع عن الإسلام ونبيه، لم يؤمّر عليه أحداً من المسلمين، ومن أبرز المعارك التي شارك فيها (بدر، أحد، الخندق، خيبر، حنين...) وقد تولى شؤون المدينة أثناء غزوة تبوك، وحين أبدى الإمام حزنه لمنعه أثناء غزوه من المشاركة في هذه الغزوة قال له (ص) أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

استمر الإمام في الدفاع عن الإسلام وعن الرسول بتفان واندفاع بفضل إيمانه بالعقيدة والروابط القوية التي تشده إلى الرسول (ابن عمه، ربيبه، ثم أصبح صهره ووالد سبطيه الحسن والحسين) لذلك كان الرسول يشيد به في كل مناسبة، ويعلن أخوته له أمام الملأ.

وقد كان عمر رضي الله عنه) يقول (في حديث صحيح على شرط الشيخين) لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاثا، لأن تكون لي واحدة منها أحب إليّ من حمر النعم، زوجته فاطمة بنت رسول الله، وسكناه المسجد مع رسول الله يحلّ له ما يحلّ له فيه، والراية يوم خيبر.(٤) فقد قال الرسول (ص) لأعطيّن الراية رجلا يحبه الله ورسوله، ثم أعطاها لعلي (عليه السلام)

في السنة العاشرة للهجرة حج النبي آخر حجة له، وتداعى المسلمون لصحبته، وفي طريق العودة استوقف الرسول (ص) المسلمين وخطب فيهم حجة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم، حيث أوصى له بولاية أمور المسلمين، قال البراء بن عازب: أقبلنا مع الرسول (ص) في حجته التي حجّ فيها، فنزل في بعض الطريق، فأمر بالصلاة جامعة، فأخذ بيد علي (عليه السلام) فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، قال: فهذا وليّ من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه. (وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، ابن جرير الطبري، الجزري المقري، ابن عقدة، أبو سعيد السجستاني، أبو بكر الجعاني وغيرهم من علماء السنة...)

وكي يحي الإمام حديث الغدير في الأذهان نجده يسأل عنه جماعة من المسلمين أثناء خلافته أي بعد حوالي خمس وعشرين سنة من حجة الوداع، وقد ذكر ذلك الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (رقم الحديث ٦٤١) فيقول حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا ابن النمير، حدثنا عبد الملك بن أبي عبد الرحيم الكندي عن زاذان بن عمر، قال سمعت عليا في الرحبة وهو يَنشد الناس: من شهد رسول الله (ص) يوم غدير خم، وهو يقول ما قال؟ فقام ثلاثة عشرة رجلا شهدوا أنهم سمعوا رسول الله (ص) يقول من كنت مولاه فعلي مولاه[٥]

بعد أيام قلائل من حجة الوداع هذه لحق الرسول (ص) بجوار ربه فتولى الإمام علي (عليه السلام) تجهيزه ودفنه، أثناء ذلك وقبل دفن الرسول (ص) كان نفر من المهاجرين والأنصار يتداولون في أمر خليفة الرسول وقد تمخض الاجتماع الذي عقد في سقيفة بني ساعدة عن تنصيب أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) خليفة للمسلمين.

الحرص على وحدة المسلمين :

أتاه إثر ذلك التنصيب كل من العباس وأبي سفيان بن حرب لمبايعته من أجل الخلافة، فرفض قائلا لهم: أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة[٦] رفض أن يشق صفّ المسلمين ووحدتهم، من أجل أن يعتلي منصب الخلافة، رغم الوصية ورغم أهليته لها، فالمهم لديه هو أن يرسّخ دعائم الدين، خاصة بعد أن ظهرت بوادر الردة لدى بعض القبائل العربية، فأراد أن ينأى بدين الله بعيدا عن الفتن والعصبيات التي كانت تسم الجاهلية، وبذلك جسّد لنا قيم حياة جديدة ترى قيم الإيمان ووحدة المسلمين فوق كل القيم، لهذا دعا أقرباءه إلى نبذ الخصومة والمفاخرة بالنسب، وبيّن لهم ضرورة العمل من أجل رفعة الإسلام ووحدة المسلمين.

وقد بذل جهده في سبيل رفعة دين الله، رغم إحساسه بالغبن، فساند الخلفاء قبله بعلمه وعمله، حتى إن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول لولا علي لهلك عمر ويقول أيضا لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو الحسن فقد كان يستشيره في كل قضايا الخلافة الفقهية والقضائية والعسكرية وغيرها من أمور الحكم، فيحسن له النصيحة.

إن المتأمل في كتاب نهج البلاغة يلاحظ مدى حرص الإمام علي (ع) على وحدة المسلمين في أقواله وسلوكه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وحين بايع المسلمون عثمان بن عفان نجده يؤكد هذا الحرص لقد علمتم أني أحق بها من غيري، والله لأُسَلِّمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه..[٧]

رفض الفتنة رغم إيمانه بأحقيته بالخلافة، فلم يقاتل أحدا من الصحابة من أجل الفوز بها، خوفا على دين الله، وإيمانا بالمصلحة العامة للمسلمين ووحدتهم، ورضي بأن يكون مظلوما، حفاظا على دينه، على أن يكون ظالما، فهو لم مشغولا بزخارف الدنيا، بل مشغولا برضى الله تعالى، ومثل هذا الحرص على وحدة المسلمين قلما نجده في تاريخنا!

إن مثل هذا الفكر الواعي لمصلحة الإسلام، الذي تجلى سلوكا وعملا لدى الإمام (عليه السلام) افتقدناه لدى بعض الصحابة، حين آلت الخلافة إلى الإمام! فقد شقوا صفوف المسلمين من أجل المال والمنصب!.

الإمام الخليفة في ميدان الحرب :

موقعة الجمل :

ما إن استلم الإمام علي الخلافة، حتى كثرت خصومه، خاصة أولئك الأغنياء الذين كانوا يتمتعون بامتيازات زمن الخليفة السابق عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فقد أدرك هؤلاء جرأة الإمام علي (عليه السلام) في الحق والعدل، إذ لا يهمه سوى مرضاة الله تعالى، وقد خاض خلال خلافته القصيرة عدة وقائع مع خصومه (موقعة الجمل، موقعة صفين، موقعة النهروان.. الخ)

بعد أن بايعه كل من طلحة والزبير، عتبا عليه، لأنه ترك مشورتهما، كما عتبا عليه أمر التسوية في العطاء، وعدم التمييز بينهما وبين عامة المسلمين! فيحاورهما بهدوء لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم أحتج إليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه، فليس لكم والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. رحم الله امرأ رأى الحق فأعان عليه، أو رأى جورا فردّه، وكان عونا بالحق على صاحبه.[٨]

بيّن لهما أنه ينفذ حكم الله في توزيع العطاء بالعدل بين الناس، وهو في هذا الأمر ليس بحاجة إلى مشورة أحد، لأن ذلك واضح في كتاب الله وسنة رسوله، فلا داعي لأن يعتب عليه أحد، إذ إنه يمارس الحق، ويدعوهما، بطريقة غير مباشرة عن طريق الدعاء (رحم الله) إلى السير في هذا الطريق ومساعدته في إحقاق الحق وردّ الباطل.

نعتقد أن عدم المساواة في العطاء أشعل أحقادهما الداخلية، ودفعهما إلى قتاله في موقعة الجمل، لكنهما اتخذا سببا ظاهريا لحربهما، يقنع بعض العامة، هو المطالبة بالثأر لدم الخليفة عثمان (رضي الله عنه).

وقد وجدناه في نهج البلاغة يناقش كل من يختلف معه بالمنطق، ففضح موقف طلحة، أثناء الفتنة، إذ لم يتخذ موقفا محددا ، فادعى بأن عثمان (رضي الله عنه) ظالم، رغم ذلك لم يناصر الثائرين عليه، وبعد انتهاء الفتنة تغير موقفه، وصار يراه مظلوما يتوجب عليه المطالبة بدمه، في حين لم يدافع عنه أثناء حصاره!

إذاً يتضح لنا أن كلاً من طلحة والزبير قد طالبا بدم عثمان من أجل الفتنة، إذ كان السبب الأساسي لنقض بيعة الإمام علي (عليه السلام) أنه هدّد مصالحهما الاقتصادية بعدله، لذلك أعدّا العدّة لقتاله في موقعة الجمل بمشاركة السيدة عائشة، وقد حاول الإمام أن يثنيهما عن القتال قبل وقوعه، ودعاهما إلى استخدام العقل، ولم يكتفِ بذلك بل نجده، قبيل القتال، يراجعهما ثانية أمام الوقاع فغمطا النعمة وردا العافية. على حد قوله عليه السلام.

عندئذ يدعو ربه قائلاً اللهم إنهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألّبا الناس علي، فاحلل ما عقدا، ولا تُحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملاً..

نعايش هنا لحظة من لحظات القهر، التي عاناها الإمام، ورغم ذلك لم يدع الله بأن يؤذي عدويه ، وهذا من آداب الدعاء لديه، وإنما دعاه شاكيا همه، راجيا أن يفشل خطتهما، فقد نقضا البيعة ونكثا العهد، دون وجه حق، ثم أرادا إضعافه بالحرب، فحرّضا الناس عليه، من أجل مطالبته بالثأر من قتلة عثمان، لذلك يدعو ربه ألا يحقق لهما ما أرادا، حتى يريا الحق، ويعودا إلى رشدهما، فيعرفا أنهما أساءا إليه وإلى المسلمين كافة.

وبعد انتهاء الموقعة بمقتل طلحة والزبير، نجده يعيد السيدة عائشة إلى المدينة، دون أن يمسها أي سوء، ويكتفي بالقول لو دعيت لتنال من غيري.. لم تفعل، ولها بعد حرمتها الأولى، والحساب على الله تعالى.[٩]

رغم أن السيدة عائشة ساندت عدويه، لكنه لم يفكر بالانتقام منها، فهو لم ينسَ مكانتها لدى الرسول (ص) فقد بدا لنا متسامحا مع كل من نصره الله عليهم، تاركا أمر الحساب لله تعالى، لذلك عاتب قاتل الزبير!! مجسّداً عبر الفعل حكمته في نهج البلاغة إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.[١٠] إذ إن أولى الناس بالعفو، في نظره، أقدرهم على العقوبة! فعايشنا بذلك قيم الإسلام بأنصع صورها!

موقعة صفين :

تمت البيعة للإمام علي (ع) بعد مقتل عثمان (رضي الله عنه) لكن معاوية في الشام رفض أن يبايعه، وطالبه بدم عثمان، فنجده يحاول أن يقنعه بالمبايعة عبر مراسلات عديدة، ولم يلجأ إلى خيار السيف إلا بعد أن فشل في الوصول إلى نتيجة عبر الحوار! ويلاحظ المتأمل في كتاب نهج البلاغة أن رسائله لمعاوية قد شكلت معظم الجزء الثالث (وهو الجزء المخصص لرسائل الإمام) مما يدل على مدى صبره في محاورة من يحالفه الرأي، حتى إنه كان يردّ على جميع اعتراضاته، وقد بدأ معه بأصل المشكلة (رفض المبايعة) يناقشه في هذا الرفض مبينا له ضعف حجته، إذ تمت بيعته بالشورى أي بالطريقة نفسها التي تمت بها بيعة من سبقه من الخلفاء، فقد بايعه أولئك الذين احتلوا مكانة رفيعة في الإسلام (المهاجرون والأنصار) وأن من كان بعيدا عليه أن يقبل بالبيعة، لأن أهل الثقة قبلوها! ويبيّن له مخاطر رفضه، فهو يخرج عن جادة الإيمان، ويشقّ صفّ المسلمين ويعصي الشورى، وكل من ينحرف عن هذه الجادة لابد أن يلقى السيف، بعد أن يتمّ نصحه! وهذا ما فعله الإمام في خلافه مع معاوية! وقد توقف في نقاشه عند السبب الأساسي الذي منعه من المبايعة، لعله يزيل أسّ الخلاف بينهما، وهو المطالبة بدم عثمان، ومثل هذه المطالبة تعني، ضمنيا، اتهام الإمام في المشاركة بمقتله، وعدم نصرته، لذلك نجده في رسائله يدعو معاوية إلى استخدام العقل داحضاً هذه التهمة قائلاً: لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنّى فتُجنَّ (تستر حقيقة) ما بدا لك.[١١]

ثم نجد الإمام في رسالة أخرى يقارن بين موقفه من الخليفة المقتول وبين موقف معاوية أينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله، أمّن بذل له نصرته، فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه، وبثّ المنون إليه، حتى أتى قدره إليه.[١٢]

شتان بين موقف الإمام الذي نصر عثمان أثناء الفتنة، ويبدو أن الخليفة قد أبعده عنه بعد أن طالت الفتنة وبدأ الناس يهتفون باسم الإمام للخلافة، لذلك (استقعده واستكفّه) لهذا كان في عزلة عنه حين قتل، فكيف يتهمه معاوية بالاشتراك بقتله؟ في حين تثبت المقارنة بين موقف الإمام ومعاوية، أن الأخير قد تخاذل عن نصرته رغم أن الخليفة استنجد به، وبذلك يرد التهمة عليه ويبرز تخاذله في الدفاع عن الخليفة أثناء الفتنة، وبالتالي فهو الشريك بمقتله لا الإمام! وبهذا الحوار استطاع أن يرد التهمة الباطلة عن نفسه، ويبرز تهاون معاوية في نصرة الخليفة.

إذاً كي يبرز الإمام أحقيته بالخلافة وينأى بالأمة الإسلامية عن الفتنة، يستخدم في حواره مع الآخر الخطاب المنطقي الذي يعتمد لغة التعليل والمقارنة، كما يستخدم لغة الخطاب الديني، فيدعو معاوية إلى تقوى الله، ويبيّن أن نعيم الدنيا زائل، ويذكره بموقفه بين يدي الله تعالى في الآخرة للحساب، ليعيده إلى جادة الحق.

إن الخطاب الديني الذي يتوجه به الإمام لإقناع معاوية، ليس خطابا وعظيا عاديا، يعتمد التخويف، وإنما هو خطاب يعتمد المنطق، فقد بيّن الله لنا الطريق الصحيح، والعاقل من يسير فيه فينجو، أما الجاهل من يبتعد عنه فيضيع، لذلك يحذر معاوية أن يكون من أولئك التائهين!! الذين يتبعون طريق البغي والزور، مما يؤدي إلى ضلاله في دينه ودنياه، ويبديان خلله عند من يعيبه ثم ينبهه إلى حقيقة ينساها الإنسان في زحمة انشغاله بالدنيا: أن الزمن الذي يمر لن يستطاع إدراكه ثانية وقد علمت أنك غير مدرك فواته.

ثم يذكره بأولئك الذين هزمهم في موقعة الجمل، كي يعتبر بمصيرهم، فيرتدع عن غيّه! خاصة حين يفكر بيوم الحساب، حيث يعاقب الله المسيء ويكافئ المحسن، لكن معاوية، فيما يبدو، ظل مصرّا على القتال!

وقبل بدء القتال في صفين نجده (عليه السلام) يرسل إلى معاوية يدعوه إلى الحفاظ على دماء المسلمين، ويقترح عليه أن يحصر القتال بينه وبين الإمام مادام الخلاف بينهما وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانبا، واخرج إليّ، وأعفِ الفريقين من القتال ، ليُعلم أينا المرين على قلبه (أي غلب عليه ذنبه وغطى بصيرته) والمغطّى على بصره.[١٣]

نلمح إصرارا من الإمام على حقن دماء المسلمين، لكن معاوية رفض المبارزة معه، وأصرّ على المواجهة بين الجيشين، فسبقه مع حليفه عمرو بن العاص برجالهما إلى صفين، وعسكرا في موقع سهل قريب من شريعة ماء على الفرات، وحين جاء جيش الإمام حيل بينه وبين الماء، وقد طلب علي (عليه السلام) من معاوية أن يخلي بينه وبين الماء بالحسنى، ولكنه رفض، فقاتلهم جيشه حتى غلبهم على الماء، وحين أراد جيش (الإمام) منع جند معاوية من الشرب، كما فعلوا معهم سابقا، رفض وأمر أن يخلّوا بين الشوام والماء![١٤]

تخلّق الإمام بأخلاق الإسلام، ورفض أن يخوض حربا غير شريفة! كما يفعل خصمه، رغم أن ذلك قد يحقق له النصر على عدوه، وخاصة أن هذا العدو سبقه إلى هذا السلوك، لكن القيم الإنسانية المستمدة من روح الإسلام كانت عنده أهم من النصر على عدوه!

يلاحظ أنه أثناء القتال لم ينهَ جنده عن الفعل الخسيس فقط! بل نهاهم عن القول المبتذل في الأعداء، إذ حين سمع جماعة من أصحابه يسبّون أهل الشام أثناء حربهم

بصفين نهاهم قائلاً إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به.[١٥]

يريد من جنده أن يكونوا مقاتلين شرفاء، يسلكون سلوكا إسلاميا، فيبتعدون عن السباب الذي يؤجج الأحقاد، لذلك يدلهّم على القول البليغ والمفيد، فيدعوهم إلى التعامل مع العدو بطريقة موضوعية هادئة بعيدة عن الانفعال: أن يقوموا بتحليل أوضاعه، ليتعلّموا من نقاط ضعفه ونقاط قوته، وبذلك يؤسس الإمام (عليه السلام) لقيم إسلامية أصيلة، فكأنه يدلّ المسلم في حالة الشدة وتعرضه للعدوان إلى الطريق السليمة، وهي الدعاء والتفكر عوضا عن السباب، فهذا أنقى للقلب وأجدى للعقل!

ومن أجل إصلاح حال المسلمين أخّر الإمام القتال في صفين إلى درجة أن أصحابه استبطؤوا إذنه لهم في القتال، واتهموه أنه يكره الموت! أو أنه يشك في ولاء أهل الشام لمعاوية ويطمع في انضمامهم إليه، فأجابهم فوالله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي، وأما قولكم شكّا في أهل الشام، فوالله ما دفعت إلى الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة، فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها.

يبدو لنا أن جند الإمام قد انتقدوه لعدم إسراعه في قتال العدو، حتى فسّروا إبطاءه تفسيرا لا يتناسب وشجاعته، فيدفع التهمة عن نفسه، ويبيّن لهم أن سبب تأخيره هو رغبته أن تعود الفئة الضالة إلى رشدها، وتستدل إلى ضوء الحق الذي يحمله في ظلام الفتن، عسى أن تهتدي وتقلع عن القتال!لم يكن قتال الأعداء بغيته، وإنما كان يسعى إلى هدايتهم وحقن دماء المسلمين، لذلك كان يوصي (معقل) قائد الجيش الذي أرسله إلى الشام لا يحملنّكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم.

يمكن المرء أن يلاحظ أن الإمام كان متحرجا في أن يكون البادئ في القتال، مع أنه على حق، لأن الحرب كانت بينه وبين المسلمين، لهذا كان يوصي جنده بالتريث وعدم الهجوم، كي لا يتحملوا وزر قتال أخوتهم في الدين.

ثم وجدناه يوصيهم، فيما لو انتصروا، باتباع الأخلاق الإسلامية والرأفة بالجرحى، كما يدعوهم إلى احترام مشاعر النساء وعدم إيذائهن، فيما لو تجرأن على الأمير نفسه، لأنهن في حالة الحزن الشديد على أحبتهن!

على النقيض من ذلك، نجد معاوية يبتعد عن القيم الإسلامية، حتى إنه يستخدم القرآن نفسه وسيلة من وسائل الخداع، حين لاحظ أن القتال في صفين يسير في غير صالحه، دعا أصحابه إلى رفع المصاحف لتحكيم كتاب الله بين الفريقين المتحاربين! لكن هذه الحيلة لا تنطلي على الإمام (عليه السلام) وإن انطلت على الكثير من جنده الذين وافقوا على التحكيم! فوضّح لهم قائلا: ما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى لكتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال: ويحكم، إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم، ونبذوا كتابه، فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في قتال عدوكم..

اتضح فيما بعد صواب رأي الإمام، فقد كان التحكيم خدعة الغاية منها خلعه (عليه السلام)) وتثبيت معاوية، عن طريق ممثله عمرو بن العاص! وقد انطلت الخديعة على أبي موسى الأشعري، الرجل الذي فرضه أصحابه عليه (عليه السلام) ولم يجده قرينا لابن العاص! عوضا عن الرجل الذي اختاره الإمام (عبد الله بن عباس)

لعل الفارق الأساسي بين الإمام ومعاوية، ليس، كما يقال، أنه لم يكن رجل سياسة ودهاء، وإنما كونه رجلا تقيا، صدق ما عاهد الله عليه في قلبه وسلوكه، وقد أدرك (عليه السلام) ذلك الفارق، فنجده يقول والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغفر بالشديدة.[١٦] أي لا يستضعفه شديد القوة.

تبدو السياسة لدى الإمام وجها آخر للدين، فوضع نصب عينيه أخلاقه من أجل لحظة الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب! في حين كانت السياسة لدى خصومه وجها آخر للدنيا، وضعوا نصب أعينهم زخارفها وملذاتها!

قتاله الخوارج :

بعد قبول التحكيم عاد الإمام إلى الكوفة، كما سار معاوية بجيشه إلى الشام، وحين وصل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل من جيشه، وعسكروا في حروراء (إحدى قرى الكوفة) لذلك دعوا بـــ (الحرورية) ويبدو لنا أنه قد انضم إليهم بعض العامة، وكان شعارهم: لا حكم إلا لله، فخرج إليهم (عليه السلام) وحاورهم، حتى استطاع أن يقنعهم فدخلوا معه الكوفة.

ومع ذلك بقيت فئة من الخوارج على اعتقادها، وكانت تصرّ أن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم، وأن يتوب كأي كافر، فنجده يناقشهم رغم منطقهم الخاطئ ، الذي يكفّره، فيبين لهم كيف أنهم يخطئون ليس في حقه فقط! وإنما في حق المسلمين عامة فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلِمَ تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفّرونهم بذنوبي.

لم يستطع الإمام رغم عمق علمه واتساع صدره في الحوار، إقناع الخوارج، الذين جمعوا صفوفهم في النهروان قرب المدائن، وقتلوا عامل الإمام على المدائن، عندئذ ألح أتباعه على قتالهم، فحاول إقناع الخوارج في تسليمه القتلة أو أن يعودوا إلى طريق الحق وإجماع الأمة، لكنهم رفضوا سار إلى النهروان، وبعث إليهم رسولا فقتلوه، فلم ير بدا من قتالهم حتى هزمهم.

وحين يطعنه الخارجي (عبد الرحمن بن ملجم) نجده يوصي أبناءه وأقاربه قائلا: يا بني عبد المطلب لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضا، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلُن بي إلا قاتلي.

انظروا إن أنا مت من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثّل بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إياكم والمُثلَة ولو بكلب عقور.

يفكر الإمام على فراش الموت بالكيفية التي يعاقب بها قاتله (ضربة بضربة) فيوصي بأن يطبق القصاص على الطريقة الإسلامية (العقاب من جنس العمل) لهذا يرفض أن يمثّل بجثة القاتل، وأن يلتزموا بالأخلاق التي دعا إليها رسول الله (ص)

تبدو لنا حكمة الإمام وإنسانيته (عليه السلام) جلية حين يوصي بألّا يعمم أهله العقاب على جماعة القاتل من الخوارج، رغم أنهم قاتلوه، فيوصي بهم خيرا، إذ يقول لأصحابه لا تقتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه.

إنه حريص على دم المسلم حتى وإن خالفه الرأي، فهؤلاء الخوارج تنقصهم الأدوات المعرفية، رغم ذلك كانوا يبحثون عن الحقيقة لذلك ضلّوا طريقها، في حين كان الآخرون، من أمثال معاوية، يبحثون عن الضلالة وزخرف الدنيا، فوصلوا إليها.

كان مؤرقا في حياته، كما كان على فراش موته، بالحفاظ على الحياة الإنسانية عامة، دون تخصيص المسلمين دون غيرهم، لذلك يوصي عامله الذي أرسله إلى مصر (الأشتر النَّخعي) إياك والدماء وسفكها بغير حلِّها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوِّين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله.[١٧]

وقد ورد هذا الكلام في سياق حديثه عن عهد الوالي مع الأعداء وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة.. ثم أوصاه بعدم سفك الدماء، مسلمة وغير مسلمة، بغير حق أو قصاص، وينصحه ألّا يفكر بتقوية سلطانه بسفك الدماء! مبينا عاقبة ذلك في الدنيا (نقمة الناس، زوال الخير وانتشار الفتن، زوال السلطة..) وفي الآخرة فإن أول ما يحاسب به عند لقاء ربه هو سفكه للدم، نظرا لفظاعة الجرم!

يبيّن لنا حرمة النفس البشرية بغض النظر عن انتمائها للإسلام أم عدم انتمائها، كما يبيّن للحكام خلل المنطق الذي يرى أن تثبيت الحكم يكون بسفك الدم، فإن من يلجأ إلى هذا الأسلوب سيخسر دنياه وآخرته.

لا يعني هذا القول أن الإمام (عليه السلام) كان يتوانى عن قتال الأعداء، لكن كل من شهر عليه السيف من المسلمين، لم يبادره بالسيف، بل بالحوار والحجة، إذ كان يحاول أولا هدايته، فإن لم يهتدوا أعطاهم حدّ السيف وكفى به شافيا من الباطل وناصرا للحق.

ومنذ تفتحه مع بداية الدعوة نجده ينافح عنها بالسيف، يقاتل الكفر والانحراف عن نهج الإسلام حتى آخر لحظة في حياته، وقد عرفت عنه الشجاعة والصبر في ملاقاة الأعداء، حتى إننا نجده يوصي لابنه محمد بن الحنفية، لما أعطاه الراية يوم الجمل تزول الجبال ولا تزُل، عضّ على ناجذيك، أعر الله جمجمتك، تِدّ في الأرض قدمك، ارمِ ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه.

يتسع صدر الإمام قبل القتال، حبا في حقن دماء المسلمين، ولكن حين لا ينفع الحوار ويصرّ الآخر على القتال يواجهه بشجاعة وثبات من لا يهاب الموت.

الإمام الخليفة والحكومة المدنية :

انشغل الإمام (عليه السلام) خلال فترة خلافته القصيرة (حوالي خمس سنوات من ٣٥هـ إلى ٤٠هـ) بمحاربة الفتن الكثيرة! ومع ذلك حاول أن يؤسس لدولة إسلامية نموذجية من الناحية المدنية.

المساواة بين الخليفة والرعية:

أسس (عليه السلام) دولته على المساواة بين الحاكم والمحكوم، مساواة نادرة في التاريخ الإنساني كله، نسمعه يقول مساويا بين الفقير وبين نفسه أ أقنع من نفسي أن يقال هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها.

إنه يجعل من نفسه واحداً من الفقراء لا يشاركهم فقط خشونة العيش، بل يشاركهم أيضا مصائب الدهر أيضاً، وبذلك يعلي من شأن قيم روحية، يحتاجها الحاكم والمحكوم، إذ لم يخلق الإنسان ليجعل همّه الملذات كالبهائم!

وهو لن يطالب هذه الرعية بأي التزام قبل أن يطالب نفسه بتحقيق التزامات الحاكم، التي من أهمها أن يحقق العدل بنفسه فيما بينها الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق فيه. ولاشك أن إحساس المساواة بين الناس يعزز في الأعماق شعور الكرامة والانتماء إلى القيم التي يدعو إليها الإمام، فيعزز الحياة المدنية.

وقد جعل من نفسه قدوة صالحة لرعيته، فلم يكتف بالقول وإنما صدّقه بالعمل أيها الناس إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها.

عاش الإمام وأهل بيته كأفقر الناس، حتى رفض أن تستعير ابنته زينب عقدا من بيت المال وتتزين به في العيد، لأن بنات المسلمين لا يملكن مثل هذا العقد، كما رفض في حياته اليومية مظاهر الأبهة التي كانت تحيط بحكام غيره، ففي مسيره إلى الشام التقى دهاقين الأنبار (زعماء الفلاحين من العجم) فترّجلوا له واشتدّوا بين يديه، فقال لهم: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلُق منا نعظّم به أمراءنا، فقال والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقُّون به على أنفسكم في دنياكم وتشقَون به في آخرتكم..

لن يقبل هذا التصاغر من الرعية وإسباغ مظاهر الأبهة عليه سواء أكانوا من الفرس، كما رأينا قبل قليل، أم من العرب، فحين مشى شرحبيل الشيبانيّ وكان من وجوه قومه، وكان (عليه السلام) راكبا، فقال له: ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن.

إذاً يرفض مظاهر التعظيم من أجل أن يحافظ على نفسه، ويبعدها عن العجب والتكبر، ومن أجل أن يحافظ على كرامة رعيته، وبذلك يحافظ على دين الله نقيا من كل شائبة، كما يحافظ على كرامة الإنسان.

الرعية غير المسلمة :

وقد وجدناه في ممارسته العملية في الحياة اليومية يجسّد مثلا أعلى لمن يتولى أمور الناس، كما جسّد لنا ذلك في أدبه، وخير مثال على ذلك عهده للأشتر النّخعيّ لما ولّاه على مصر وأعمالها، الذي يعدّ، باعتقادي، وثيقة إسلامية لحقوق الإنسان، فكان أول ما أمره به، بعد تقوى الله وطاعته، إصلاح نفسه وكسر شهواتها، عندئذ يكون أحب الذخائر إليه ذخيرة العمل الصالح بعد ذلك دعاه الإمام إلى المحبة والرأفة والمساواة بين الرعية بعيداً عن الاعتبارات الدينية وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإنما نظير لك في الخَلق، يفرط منهم الزلل، ويعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.[١٨] يستخدم الإمام لفظة (الرعية) للدلالة على الرعايا المسلمين وغير المسلمين، كما يستخدم لكليهما ضمير جماعة الغائبين، وبذلك توحدهما دلالة هذا الضمير! كما توحدهما دلالة الأفعال التي يقوم بها الوالي تجاه رعيته المسلمة وغير المسلمة! وحتى حين أراد أن يصنفهما إلى صنفين (مسلمين وغير مسلمين) نجده يركز على ما يجمعهما نظير لك في الخَلق أي نظير لك في الإنسانية، لذلك عليك أن ترفق بهم كما ترفق بالمسلمين، وتوليهم عطفك ومحبتك، فهم بشر مثلك يخطئون ويصيبون، فيدعوه إلى العفو عنهم، كما يحب أن يعفو الله عنه، وهنا يؤسس لدولة مدنية تراعي حقوق الإنسان بمعزل عن انتمائه الديني.

وكذلك يركز الإمام على أمر يهم ولاة الأمر في كل زمان ومكان، وهو كيفية جمع الضرائب (الزكاة والجزية) فيطالبه بالعدل بين المسلمين وغيرهم أثناء جمعها فلا يرهقهم ماديا ولا معنويا، فهنا تتجلى المساواة في أنصع صورها، فالرعية جميعاً أمانة في عنقه، لأنها تقدم خدمات للدولة، لذلك يطالبه بالتزام آداب واحدة في جباية الأموال من

المسلمين وغيرهم لا تضربُنّ أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسُّنّ مال أحد من الناس مصلّ ولا معاهد، إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام، فإنه لا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام فيكون شوكة عليه.

يرفض الإمام أن يمارس عماله أساليب القهر في تحصيل أموال الدولة، كما حصل بعد خلافته، حين صار كثير من الحكام المسلمين جباة لا دعاة، وقد لاحظنا أنه دعا إلى استخدام السيف في حالة واحدة فقط، هي حالة الاعتداء على المسلمين، عندئذ يتوجب عليهم الدفاع عن الدين والكرامة.

يتضح لنا في كتابه إلى الأشتر أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، لذلك يعدد أصنافها: جند الله، كتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية، وهذه الأصناف لا غنى لبعضها عن ببعض في تدبير أمور حياتها. وبذلك يعطينا المثل الأعلى في قبول الآخر المختلف، رغم أنه يملك السلطة التي تتح له قتاله والقضاء عليه.

الانفتاح على الآخر المخالف في الرأي :

إن ما يؤسس لحكومة مدنية هو قبول الآخر المخالف في الاعتقاد والرأي، وهذا لن يكون إلا في ظل حكومة تحترم رعاياها وتعاملهم معاملة واحدة، بغض النظر عن ولائهم الفكري والديني لها، وقد لمسنا في دولة الخليفة علي بن أبي طالب معالم تؤسس لمثل هذه الحكومة.

كما لمسنا لديه ما يدحض رأي بعض القائلين في أن الرعية المسلمة اعتادت استبداد الحاكم، الذي يظن نفسه أشبه بإله، فينفرد برأيه، كما ينفرد بسلطته، إذ وجدناه (في نهج البلاغة) يقول لرعيته: لا تكلموني بما تكلَّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة (الغضب) ولا تخالطوني بالمصانعة.. لا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن من ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب واحد لا رب غيره.

ينطلق الإمام (عليه السلام) من مبدأ إسلامي يساوي بين البشر جميعا، وينفتح على الإنسان مهما كان موقعه، إذ لا فرق بين حاكم ومحكوم، فالجميع يشتركون في العبودية لله تعالى، لذلك أراد الإمام علي (عليه السلام) أن تعامله الرعية كواحد منها، لا كما تعامل الجبابرة المستبدين، فتحدّثه دون خوف ودون أن تخشى غضبه عليها، كما يطلب

منها أن تحدّثه بصدق دون تملّق، بل يدعوها إلى أن تسدي إليه النصيحة، بقول الحق والإشارة إلى العدل، لأنه لا ينزّه نفسه عن الخطأ في قول أو فعل!! وهو الإمام ربيب رسول الله (ص) الذي كان للإسلام فقيها وعاش من أجله مجاهدا، ومع ذلك لا يستعلي على رعيته، بل يعلن حاجته إلى نصحها كما هي بحاجة إلى نصحه.

كما أنه حريص، وهو أمير المؤمنين، على استيعاب رأي الآخر المختلف، حتى ذاك الذي قد يسيء إليه بأقبح قول أو صفة يمكن أن توجه لمسلم، فقد سمع أحد الخوارج رأي الإمام في إحدى المسائل قال: قاتله الله كافرا ما أفقهه!! فوثب القوم ليقتلوه، فقال (ع): رويدا إنما سبّ بسب أو عفو عن ذنب!![١٩]

يقف رجل عادي أمام أعلى سلطة في الإسلام التي يجسدها الإمام ليوجه له تهمة الكفر، فلا ينال عقابه منه، بل يراها أمير المؤمنين مسبة عادية، يردّ عليه بمثلها أو يعفو عنها! هنا نلفت النظر إلى أن هذه الإساءة قد صدرت من رجل خارجي ينتمي إلى أعداء الإمام.

وقد يتبادر لذهن البعض أن هذا الانفتاح على الآخر في أيام السلم دون الحرب، وما ينقض هذا القول أننا وجدناه يستمع لرأي جنده، ويضطر للأخذ به رغم عدم اقتناعه بصحته، ففي موقعة صفين، حين اضطرب عليه أصحابه في أمر التحكيم، يستجيب لرأي الأغلبية وهو مدرك أنهم على خطأ، ليس فقط في قبول التحكيم، بل حتى في اختيار الحكم، فقد اختار عبد الله بن عباس، في حين اختاروا أبا موسى الأشعري، فنزل عند رأيهم رغم أنه يفضل ابن عباس عليه لحنكته وذكائه أيها الناس إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب، وقد أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أنهك. لقد كنت أمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت أمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا، وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.[٢٠]

يحس القائد بجنده وقد أتعبتهم الحرب، لذلك يصغي إليهم، فلا يكرههم على بذل ما لا يريدون من تضحيات، ويستجيب لرغبتهم في إيقاف القتال رغم أن المعركة تسير في صالحهم، يبدو لنا سماعه لصوت الآخر قد بلغ أقصى درجة ممكنة، حين حصل تبادل للأدوار بين الحاكم والمحكوم، فقد أحس الأمير بأنه مأمور من قبل جنده!!

إذاً ينأى الإمام في معاملته لرعيته عن الاستبداد برأيه، رغم أنه على صواب، ويترك لهم حرية الاختيار، دون أن يرهبهم بمكانته في الإسلام أو بسيف السلطة، فهو حريص على نمو علاقة استثنائية تقوم على الاحترام والود المتبادل بين الحاكم والمحكوم!

إنه يصغي إلى رأي الأكثرية، رغم عدم نضجها، وفجاجة رأيها، ولا يلزمها الأخذ برأيه، مع أن هذا الرأي تثبت الأيام صوابه! وبعبارة أخرى يعتمد رأيها رغم عدم أهليتها لممارسة الديمقراطية بلغة اليوم.

وخير دليل على ذلك أنها بعد التحكيم، تعود لرأيه، لكن بعض الجند (الخوارج) بدل أن تفيء إلى الرشد نجدها تنحرف متهمة الإمام بالكفر فتخرج عليه لقبوله التحكيم! بعد أن ألحت عليه ليقبله!! ورغم خروجها عليه، لم يبادرها بالسيف وإنما بالحوار، لكنها حين بدأت بالقتل، لم يجد بدا من قتالها.

رغم صنوف المعاناة التي عاناها من رعيته وأعدائه، لم يفارقه حس العدل، فلم نجده يجور حتى على خصومه، فجسّد لنا المثل الإسلامية خير تجسيد عبر أقواله وأفعاله، وهذا ليس غريبا على ربيب رسول الله (ص)

لهذا كان الإمام (عليه السلام) قدوة لنا في التعامل الموضوعي مع الآخر المختلف، يعلي شأن الحوار معه، فلا يرفع سيفه، قبل أن يجادله بالتي هي أحسن، لعله يفيء إلى حكم الله! وخير دليل على ذلك أنه لم يبدأ الآخر بقتال قط! وهذا ما أثبتته كتب التاريخ ولحظناه من خلال خطبه ومراسلاته في كتاب نهج البلاغة كما يعطينا المثل الأعلى في كيفية الدفاع عن الحق والثبات من أجله دون أية مساومة أو مهادنة للباطل.

وقد تجلّت لنا لدى الإمام (عليه السلام) سمة نادرة، وهي التعامل الموضوعي مع الآخر ومع الذات معا، حتى فيما يتعلق بالمشاعر، فنجده يطالب محبّه ومبغضه على السواء بالاعتدال في المشاعر تجاهه! فيقول: سيهلك فيّ صنفان: محبٌّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حالا النمط الأوسط.[٢١]

وهكذا فإن أية مبالغة في نظره (ع) في الحب والبغض تودي بالإنسان إلى التهلكة، والانحراف عن جادة الحق، لذلك يطالبنا بأن نسير في الطريق الوسطى التي تؤدي إلى كتاب الله وسنة رسوله، وبذلك تجتمع كلمة المسلمين.

الخليفة والعلم :

حاول أن يؤسس الإمام دعائم دولة مدنية حقيقية، ومثل هذه الدعائم لن تكون إلا بالعناية بالعلم، لذلك رأى أن من أولى واجبات الحاكم أن يوفّر للرعية أمور حياتها المادية والمعنوية (التعليم) كي يرتقي بحياتها، وبعد ذلك يطالبها بالطاعة والنصيحة له، لذلك بدأ بحقوق الناس على الحاكم، ثم بحقوق الحاكم على الناس.

أيها الناس إن لي حقاً ولكم علي حق، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم.[٢٢]

وقد بيّن أن العلم ليس فقط إحدى أهم الركائز التي تبني أعماق الإنسان ووعيه، بل ينبّه إلى أنه ركيزة أساسية لبناء دولة قوية، لذلك يدعو واليه الأشتر، وكل وال يهمه الارتقاء بولايته، أن يجالس العلماء يناقشهم، ليستفيد من حكمتهم، من أجل مصلحة البلاد والقضاء على الفساد، فيقول: وأكثر مدارسة العلماء، ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك...

لم يبخل بعلمه على رعيته، بل كان يقول لهم قولته المأثورة يشجعهم فيها على السؤال والعلم سلوني قبل أن تفقدوني وهو يركز على العلم الذي ينفع الناس، ويرفض كل ما يضرّهم من العلوم، لذلك نجده يوصي ابنه قائلا لا خير في علم لا ينفع، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه. كالسحر والشعوذة، وكالعلوم التي تجلب الدمار إلى الإنسان، لذلك رفض نصيحة المنجمين قبل معركة (النهروان) بعدم القتال، وحقق نصرا على أعدائه، وهو في ذلك يحتذي أقوال الرسول (ص) في عدم الإصغاء إلى المنجمين

كذب المنجمون ولو صدقوا.

إن إعلاء شأن الأمم لن يكون إلا بالعلم النافع، الذي يسهم في تقدم الحياة، أما علوم السحر والشعوذة فإنها تسهم في خلق إنسان اتكالي، يغتال عقله بيده، ليركن إلى المجهول، وهذا ما يسهم في تدمير الأمم.

من هنا يمكننا أن نقول: إننا اليوم أحوج ما نكون إلى فكر الإمام وأدبه، الذي يقدم لنا الحضارة الإسلامية بأجلى صورها، كي نستطيع أن نؤسس نهضتنا على أسس قويمة، ونبني ذواتنا وعقولنا، مترسمين أخلاق الإسلام التي جسّدها لنا الإمام علي (عليه السلام) عندئذ نستطيع أن نقاوم خطر الاستلاب الحضاري الذي يتهدد شخصيتنا اليوم، كما نقاوم إرث الاستبداد الذي يلغي الآخر، فنستطيع تأصيل قيم المحبة والتسامح والعدالة، إلى جانب الدفاع عن الكرامة والحق مهما كانت التضحيات.